فتات حلم

مسحت دمعتها بصمت وهي تحاول أن تلملم ما تبقى من أشلاء كرامتها المتناثرة، تخرج من غرفةٍ ستبقى تفاصيل جدرانها محفورةً في ذاكرتها، غرفةٌ حملت حديثاً حطم ما تبقى لها من أمل دمر لها ذلك الحلم حلم لم يرى النور بعد. " لا " لم تكن كأي شيء سمعته من قبل، كانت تحمل بين حرفيها الكثير من الألم الممزوج بمرارة الصدمة. تحاول أن تسترجع و بصعوبة بقايا حديث والدها "من سمح لك بأن تحلمي؟ مستقبلك مرسوم ... مدروس من قبل التاريخ، ولا سبيل للتغيير ... إن هذا مستحيل".

تقف لتتأمل الكلمة الأخيرة "مستحيل" ... حاولت أن تبحث لها عن معنى لكنها لم تجد، لم تجد سبباً لم تجد أملاً لم تجد أي شيء. لم تجد نفسها إلا في مكان تعجز كلمات وحروف البشر عن وصفه، لم تستطع أن ترى سوى غيوم رمادية منسوجة بكآبة أبدية تطفو فوق رأسها، وأمطار من يأسٍ تهطل عليها، وأجنحةً لغربان سوداء تحمل قطرات قهرٍ في مناقيرها، ترجعها ضحكات إخوتها الصغار إلى العالم الواقعي حيث لا مكان لها فيه بأن تريد. تحاول أن تنهض، تحاول أن تقنع نفسها كما كانت تفعل دائماً بأن هذه هي الحياة، مجرد مكان قاسٍ لا مكان فيه للرحمة ولا وقت فيه للحزن. لكنها لم تملك القدرة على استيعاب تلك المعطيات الجافة الآن، إنها لم تفقد حباً لم تفقد شخصاً، بل حرمت من حلم.

ترسم على وجها ابتسامةً أرادتها حقاً أن تكون حقيقية، لكن زيف العالم أجمع قبع بين طياتها. تستعين بما تبقى لديها من رباطة جأش وصبر ورثته عن أمها وتنهض لتكمل المسير. كانت **لُجيْن** رغم كل الضغوط الواقعة عليها لا تستسلم، تغمض عينيها، تنزل رأسها، تحني ظهرها، لكنها تعود في كل مرة أقوى من السابق، ووصايا من تحب لا تغادر ذاكرتها، تحفظها داخل قلبها ولا تخبئها إلا بين أضلعها، تلقي عليها نظرة كل ليلة قبل أن تغفى في عينيها.

لم تكن تلك الأسباب التي كانت تنعتها **لُجين** "بالسخيفة الواهنة " لتضعف عزيمتها أو تفتت صخور إصرارها التي تفننت في نحتها الأيام. قاومت كثيراً وها هي تودع اليوم مدرسةً حضنت لحظات لا تنسى من صفحات ماضيها المثقب بالمشاكل والهموم والأوجاع وبمعدل "ممتاز جداً" مع منحة مدفوعة التكاليف لدراسة الطب ودون أن تكلف والدها فلساً واحداً. لم تكن تدري أن هذه ليست سوى بداية النهاية، وأن أكبر مفاجأة قد خبأها القدر للسطر الأخير. لم تكن تدري بأن أسياد العادات كانت قد قررت رميها على رف في المنزل ليأكلها الغبار مع الأيام كما سيأكل شهادتها المزروعة فوق الحائط للمشاهدة والابتسام. قرر والدها أن يقطع عليها تغريد جميع جوارحها فرحاً، وغناء قلبها الصامت طوال عقود طوال، "يكفي، لا داعي لأن تكملي دراستك، بل يكفي أنك وصلت لهذه المرحلة أصلاً ولا يوجد داعٍ للمواصلة". ذلك ما كان كان فوق قدرة تحملها بكثير. كل ما فيها عارض وعارض بشدة منقطعة النظير. " اختاري ... إما أهلك وإما دراستك ... اختاري واعلمي أن قرارك لا سبيل للرجعة فيه، ولا وجود لخط قطار يعيدك للوراء"، وبدون أن تفكر حتى اختارت مواصلة مستقبلها المشوه منذ البداية.

خرجت من ذلك المنزل منزلها الذي لم يجلب لها سوى العذاب ولم يعزف على أوتار قلبها الصدئ الجدران سوى مقطوعات الشقاء. إن قلبها لم يعرف حتى تلك اللحظة شيئاً سوى السحق، سحق الأحلام، الآمال، وحتى الأفكار، ومضت عشر سنين، قد تكون لجين نسيت خلالها حيها وبيتها ومدى كرهها لوالدها، ولكن ما لم تستطع طرده من خزائن ذاكرتها أبداً هو دموع أمها المتواصلة حزناً على فراقها وتوسلاتها لزوجها

للعدول عن رأيه في اللحظات الأخيرة. لم تستطع أن تسامحه أو حتى أن تزور قبره الذي طالما نظرت إليه بحرقة من بعيد.

كبرت **لجين** وكبر معها حب البقاء بداخلها. رزقها الله بنسخة مصغرة منها، إنها كل عالمها الآن، ابنتها ولكنها مع كل البهجة والسعادة التي كانت تضفيه مرحا على حياتها لم تستطع أن تتناسى أن تتجاهل ذلك الحلم الذي دفنته في مقبرة طموحاتها منذ زمن سحيق. وذات ليلة خريفية باردة أعادتها رائحة الهواء ومنظر الأوراق المتطايرة في السماء، أعادتها إلى الوراء، إلى ذكريات طفولتها عندما كانت لا تغمض عينيها إلا لتتخيل نفسها تلك المحامية العظيمة التي تدافع عن حقوق الأطفال المغتصبة في كل البقاع. لم يعدها إلى أرض الواقع صوت صوت بكاء ابنتها المتعالي في الأرجاء، منذ ذلك اليوم تيقنت أن حلمها لم يمت أبداً، كل ما في الأمر أنه كان في سبات شتوي طويل الأمد ينتظر أمراً من صاحبة القرار وشجاعة لتحدي الصعاب للاستيقاظ.

عاد الأمل ليسري في شرايينها ويتغلل في عقلها الذي اعتاد فقط دوماً على تلقي الأوامر والقرارات، ولكنه تعرض لأعادة برمجة تامة، فها هو الماضي يعيد نفسه لكن بفارق أنها كانت هي الآن من يختار. أعادت الثانوية وبنفس الهمة وقوة التصميم، وعادت لتحصل على منحة كاملة، وأخيراً تحقق حلمها، وقفت أمام كلية القانون ودمعت عيناها، لم تكن تلك الدموع كأي دموعٍ ذرفتها من قبل. كانت دموعاً تؤذن وتصرخ بفرحة الانتصار والتغلب على الصعاب وكسر تماثيل معتقدات الجهل مهما كانت صلبة وغير قابلة للتحطيم. لربما لم تستطع أمها أن ترى جميع أوسمة الشرف المعلقة على حائط غرفتها، ولم تستطع أن ترى جميع الابتسامات التي زرعتها على وجوه العشرات من الأطفال الذين قدمت لهم خالية من ظلمة الاستغلال وجفاف الحياة وبرد الوحدة، لكن بلا شك أن روحها كانت هناك في الأعالي تنظر إليها وتبتسم ... وبين رموشها دمعة افتخار لم تشأ أن تمسحها قط.